(تأصيل هوية الجنوب الثقافية ورفض ثقافة الغزو والقبيلة والفيد) في محاضرة ثقافية بعدن

"الأمناء" تغطية/ علاء عادل حنش:

أكد عضو اتحاد أدباء وكتاب الجنوب، الأستاذ الباحث صبري أحمد عفيف أن ميليشيات الحوثي وقوات صالح لم تغادر وتنسحب من محافظات (عدن، لحج، الضالع) الجنوبية إلا بعد أن عاثت بمعالمها الأثرية والروحية والتاريخية والثقافية عبثًا وخرابًا ونهبًا وتدميرًا غير مسبوق في التاريخ الحديث.

وأشار إلى أن تجارة الآثار وتهريبها نشطتها من قبل شخصيات مهمة في النظام السابق بواسطة أسواق سوداء سرية في المناطق التاريخية الجنوبية، واستخدموا باحثين عربًا للتعرف على أهمية القطع الأثرية وزمنها ومدلولاتها.

وقال إن: "هناك توجهًا رسميًا لدى القوى الشمالية لتنشيط استراتيجية شراء الآثار من المواطنين في الجنوب وتشجيعهم بنداءات وطرق مختلفة، وقد استطاع كثيرون من أبناء الشمال من جمع آثار قيمة، فقد كان أحد وزراء صالح يقيم متحفًا خاصًا في بيته للآثار ويستقبل في منزله لصوص الآثار ومتتبعيها والبائعين بشكل مستمر".

وأضاف: "إن استهداف هُويَّة الجنوب الأثرية يهدف إلى تشتيت انتماء الجنوب الأصيلَ، وتغريب أجياله المتعاقبة عن الامتداد التاريخي الطويل والإرث الفكري والثقافي ورموزه ونفي هُويَّة الجنوب وسحقها"، مؤكدًا أنه جرى استهداف الجنوب في الهُويَّة الثقافية، و"سحق معالمه وتراثه ضمن خطة وعمل مَنهج وبخطى حثيثة، لذا فقد كانت الهُويَّة على صلة وعلاقة وثيقة جدًا في صراع الشمال مع الجنوب، كما كانت الهوية الهدف الرئيس والقضية الجوهرية في هذا الصراع".

كل ذلك وأكثر جاء خلال المحاضرة الثقافية التي نظمتها الأمانة العامة لاتحاد أدباء وكتاب الجنوب أمس الأول السبت في مقر الاتحاد بمديرية خورمكسر في العاصمة عدن تحت عنوان: "دور المثقفين الجنوبيين في تأصيل هوية الجنوب الثقافية ورفض ثقافة الغزو والقبيلة والفيد".

وبدأ مجريات المحاضرة رئيس الدائرة الثقافية في الأمانة العامة للاتحاد د. عبده يحيى الدباني، الذي أدار المحاضرة، بالقول: إن المحاضرة "عبارة عن بحث قام به الباحث صبري أحمد عفيف وزملاء له، وحولها إلى محاضرة، وهي محاضرة بينت عناصر هوية الجنوب الثقافية، وبينت سياسة الطمس التي مارسها الاحتلال خلال سنوات طويلة، وذكرت دور المثقفين ودور شعب الجنوب في تعزيز ثقافته والتمسك بها رغم الطوفان من الغزو والطمس".

وأضاف: "وصل الباحث إلى بعض التوصيات منها ضرورة الالتفاف حول الهوية الثقافية للجنوب؛ لأنها هي التي تدل على التماسك، فمتى ما كنا متمسكين بثقافتنا الجنوبية وهويتنا الجنوبية تماسكنا سياسيًا، وسنستطيع أن ننتصر على عدونا، فالثقافة الناجحة هي التي تقود إلى السياسة الناجحة".

بعدها، بدأ الأستاذ الباحث صبري أحمد عفيف في إلقاء محاضرته الطويلة والقيمة بالحديث عن إنّ "الثقافة والعمل الثقافي يمثلان أهم ملمح من ملامح هويّة الأمّة وشخصيتها، ويؤديان دورًا بالغ الأهمية في المحافظة على الأمّة وتحصينها وضمان تقدّمها ونهضتها، وانطلاقًا من هذه القاعدة، فإنّ الأمم التي حافظت على ثقافتها وانشغلت بالهمّ الثقافي هي تلك التي نالت الحظ الأوفر من التقدّم، بينما الدول التي تنكّرت لثقافتها وقصّرت في الاهتمام بها وبالعمل الثقافي هي نفسها التي وقعت فريسة للأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وسواها".

وقال: "إنّ للثقافة أهمية بالغة في حياة الأمم والشعوب، كما أن لها دورًا كبيرًا في تحقيق التنمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي المحافظة على الأمن الاجتماعي، ووحدة الأمة، إلى جانب أهميتها في المحافظة على الهوية الوطنية، وذلك انطلاقًا من اعتبار أن عناصر ثقافة المجتمع تمثل المشترك بين أبناء الأمة، والثقافة العربية هي أمّ جامعة من جوامع أمّة العرب لغة وتراثًا وعادات وقيمًا، وكلما ازداد هذا المشترك وحافظنا على بقائه جامعاً بين أبناء الأمّة ضمنّا تماسك المجتمع ووحدة الأمّة، وتبعاً لذلك ضمنّا قوتها، وقدرتها على الصبر في الشدائد ومواجهة التحديات".

طمس هوية الجنوب الثقافية

وفيما يخص الهوية الثقافية الجنوبية ومحاولات طمسها وأضعافها، قال عفيف إنّ: "الهوية الجنوبية ليست هويةً إشكالية تتعارض فيها مكونات الثقافة مع خصائص الهوية الوطنية، فالهوية الجنوبية المعاصرة المؤسَّسة على ثقافة إنسانية عريقة، والطالعة من معاناة القهر ومساعي التهميش والطمس والإلغاء، والتي أعادت إنتاج نفسها عبر مسيرة نضالٍ وطنيٍّ تحرُّريٍّ شاق وعنيد، قد حصَّنت نفسها، باستنهاضٍ ما اختزنته جذورها الثقافية العريقة، من السقوط فيما نهضت لحماية نفسها منه ومقاومته، وإن المتأمل في تاريخ هوية الجنوب العربي يرى أنها تأسست على عمق ثقافي منفتح على ثلاث جهات هي (تاريخ الجنوب العربي الموغل في القدمَ؛ معطيات الحاضر الموسوم بالنضال التحرُّري؛ وممكنات المستقبل المفتوح على استعادة القدرة على المشاركة في صنع الحضارة الإنسانية)، وذلك في تواشج متصل مع نهوض هذه الهوية، أولاً وقبل كل شيء، على رؤىً مستنيرة، وعلى مبادئ إنسانية متفتحة، وعلى قيمٍ ومعايير تحترم الإنسان، وتحمي حقوقه وحرياته جميعاً.

وأضاف: "إن الهوية الثقافية للعربية الجنوبية ليست وليدة الحدث بل إنها هوية متأصلة جذورها في عمق التاريخ الإنساني وكل الحقائق التاريخية تؤكد أن الجنوب كان دولة وشعبا مستقلا عبر العصور ولم يكن ملحق بشعب أخر أو جزء منه، وقد مرت أرض الجنوب بعدة تسميات نتيجة لطول الأزمنة التي عاش على أرضها الإنسان، وتكونت فيها عدد من الدول والحضارات والممالك وكل تلك الدول كان لها ثقافتها وحضارتها العريقة".

وأكد إن: "مسح هوية الجنوب يعني تدمير سماتها وانتمائها كلياً وجعلها في التبعية والإذلال الشمالي وبعثرة الانتماء الجنوبي وتفكيك النسيج الجمعي الواحد وتوطين حالة الانهزامية في الوسط الشعبي للجنوب، وتدمير مقوماته وأسس وجوده؛ فذلك يعتبر الرافعة الأهم لتحقيق أطماع الشمال وأدواتهم، وعلى هذا الأساس يصبح الجنوب حديقة خلفية للشمال وتابع له فكريا وثقافيا".

القضاء على الهوية الثقافية والفكرية

وفيما يتعلق بالقضاء على الهوية الثقافية الفكرية، أكد عفيف إن: "القوى اليمنية بكل مكوناتها السياسية والقبلية والعسكرية عملت منذ اجتياح الجنوب عسكريا لطمس هويتنا الثقافية ووضع العراقيل أمام نمونا الثقافي . فقد مارس الاحتلال اليمني، وما يزال، سياسة منهجية بطيئة منذ 28عاما من الاحتلال لمحو الهوية الثقافية ولما كانت الهُويَّة الثقافية والفكرية على هذا النحو المؤثر جعلها الشمال المحطة الأولى في صراعه مع الجنوب فعملوا على تعزيز الثقافية الشمالية وحاولوا نزع الثقافة من الجنوب؛ لأن غياب الاعتزاز بالذات والموروث الثقافي والحضاري شكل أحد الأسباب التي راكمت جمود الفعل الحضاري في الوسط الجنوبي، ولا يمكن الوصول إلى مستوى متقدم للجنوب من الندية مع الشمال دون أن يعرف الجنوبي معنى الجنوب ويعرف أيضاً من هو الشمال".

وقال: "لقد سعى نظام الاحتلال اليمني إلى طمس وتهميش الإبداع الثقافي والفكري الجنوبي فتم تعطيل الإنتاج الفكري والأدبي والثقافي مما جعل معظم الأدباء والمفكرين الانعزال عن المشهد الثقافي والأدبي والمتأمل فيما أنتج من أعمال أدبية في العقدين الماضيين يرى الغياب التام لكافة الأشكال الأدبية —إن ظهرت رواية هنا أو قصيدة شعرية هناك — فإنه جهد شخصي نحو روايات حبيب سروري التي تم تأليفها خارج الوطن ومن هنا شكل غياب الأدب الروائي الجنوبي خلال هذا الفترة فجوة ثقافية... وإن المتتبع للإنتاج الروائي الجنوبي يرى أن حضوره شكل نسبة ضعيفة مقارنة بالأدب الروائي في الشمال فقد بلغ عدد الروايات الجنوبية التي أنتجت خلال العقدين الماضيين (36) رواية معظمها كتب خارج الوطن بينما بلغت الروايات الشمالية(137) رواية وهذا يبين مدى التهميش المتعمد الذي فرض على عدن التي كانت منبر الثقافة والحضارة والإبداع الفكري والحضاري".

وأضاف: "قائمة التعديات والممارسات لمحو الهوية الثقافية الفكرية كثيرة، ولها أبعاد سياسية وثقافية تهدف القوى اليمنية المغتصبة لأرضنا من ورائها إلى تدمير مقومات الهوية وتشويه معالمها الثقافية، ومن أبرز ملامح التهميش والإقصاء الذي فرض على الثقافة الجنوبية هي تهميش الشخصيات الثقافية الجنوبية وتغييبهم تماما من المشهد الثقافي، وتدمير المؤسسات الثقافية والتنويرية ومصادرة ميزانياتها التشغيلية ولم يقف الحد هنا؛ بل تم تحويل المنابر الثقافية الجنوبية إلى أماكن تمارس فيها الرذيلة والدعارة ، بالإضافة إلى نهب ومصادرة كل المقومات والأصول الثقافية المادية والفكرية من مسرح ومنتديات وملتقيات ثقافية وأدبية ورياضية ودور سينما ومعاهد فنون ومكتبات ومناهج دراسية وغيرها، وقاموا باستخدام تسميات يمنية على الشوارع والمدن الجنوبية هادفين بذلك إلى محو التاريخ والذاكرة، إلى جانب نهب وسرقة وتزوير أغانينا وتراثنا الشعبي ومأكولاتنا الشعبية والأزياء الشعبية، وتزوير التاريخ الجنوبي وتحريفه في المناهج الدراسية في كافة مراحل التعليم الأساسي والثانوي والجامعي".

حقيقة ما يوجد في البنك المركزي!

وتساءل عفيف، خلال إلقائه بحثه الذي أشرف عليه مركز رؤى للدراسات الاستراتيجية والاستشارات والتدريب، عن لماذا يحدث تجديد المعالم الأثرية الجنوبية فيما المعالم الثرية في الشمال لا تجدد؟.

وطالب عفيف بضرورة إنشاء متحف جنوبي وطني يحتوي كل الآثار الجنوبية حفاظا على الهوية الجنوبية.

وأكد إنهُ حصل على معلومات تفيد بأنه يوجد آثار جنوبية هامة خاصة بمتحف (عدن الحربي) متواجدة في البنك المركزي اليمني في عدن وعليها حراسة شخصية.

دور المثقفين الجنوبيين

وعن دور المثقفين الجنوبيين في تعزيز هوية الجنوب الثقافية ومقاومة الغزو الفكري والعسكري للجنوب، قال عفيف إنهُ: "إذا كان لكل شعب من الشعوب خصائصه الثقافية المميزة له التي تجعل منه شعبا في مقابل شعب آخر وهي ميزة تنطبق على شعب الجنوب العربي مثلما تنطبق على أي شعب آخر؛ فإن للجنوبيين خصوصية تشكل قيمة مضافة لهويتهم الثقافية تتمثل خصوصية الهوية الجنوبية في أن تبلورها ارتبط بمواجهة مستعمرين كثر وتعرضت للغزو الفكري من قبل القوى اليمنية والأجنبية مرات عديدة وفي كافة المراحل، وشكلت النكبة اليمنية وما تعرض له الجنوب من غزو في 94 الذي استهدف وجودهم والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري والإنساني بشكل عام وعليه يصح القول: إن هوية الجنوب تشكلت في خضم صراع مرير خاضه هذا الشعب لإثبات وجوده في هذا المعركة القاسية وغير المتكافئة ؛ مما جعل من القوى الجنوبية الحرة والمؤمنة بالتحرير والاستقلال في طور تشكل الهوية الثقافية والوطنية والاجتماعية الجنوبية إطارًا ناظما لها، واستخدامها كسلاح واستراتيجية دفاع عن الوجود، ولتعزيز المقاومة ضد كل أشكال الاضطهاد التي تمارس بحقنا شعبًا ".

توصيات

واختتم الباحث محاضرته بوضع عدد من التوصيات بقوله: "المحافظة على الهوية الثقافية الجنوبية يحتاج إلى رؤية وخطة استراتيجية موجهة وليست ارتجالية وآنية، على أن يتم التركيز على مقومات تعزيز روح الانتماء والحفاظ على التاريخ بكافة الطرق والإمكانيات والسبل المتاحة من أجل مجابهة مخططات الاحتلال اليمني لاقتلاعها وتهجيرها تمهيدا لمحو الهوية الثقافية، بالإضافة إلى تسخير جهودنا وإنجازاتنا وتعزيز حضورنا لنخوض معركتنا أيضا بسلاح الثقافة الوطنية الجنوبية، والقصد هنا هو استخدام الثقافة كحقل داعم معرفي وإنتاجي من أجل خدمة القضية الجنوبية محليا وإقليميا ودوليا، وعليه تكمن أهم المهام الثقافية أمامنا كجنوبيين من خلال تعميم ثقافة تعزيز روح الانتماء للهوية الوطنية الجنوبية فكرا وممارسة وتوحيد الجهود على امتداد الوطن الجنوبي والشتات، ومقاومة جميع أشكال التغريب الثقافي لهويتنا وثقافتنا الوطنية والاجتماعية، ما دام الاحتلال على أرضنا".

وتابع في سرد توصياته: "إن مهمتنا تكمن في رسم مشروعنا الحضاري من خلال الثقافة والإبداع، وهي إحدى أساليب مقاومة أشكال الطمس أو قتل الروح والهوية الجنوبية، ويجب أن نكون أوفياء لحضارتنا العربية الجنوبية وتراثنا وقيمنا ومبادئنا السامية ومعتقداتنا الأصيلة ولغتنا وثقافتنا وعقيدتنا، وأن نسعى للحفاظ على هذه الثقافة والدفاع عنها وإبقائها حيّة في نفوسنا، وبذلك نصنع مجتمعاً متحضراً ومنتجاً وسليماً من الآفات الاجتماعية والأخلاقية وسواها".

مداخلات قيمة

بعدها، فُتح باب المداخلات في المحاضرة التي حضرها عدد من الأدباء والمثقفين الجنوبيين كان على رأسهم رئيس اتحاد أدباء وكتاب الجنوب الدكتور جنيد محمد الجنيد، والأمين العام لاتحاد أدباء وكتاب الجنوب الأستاذ بدر العرابي، حيث بدأها الأستاذ محمود المداوي، بالقول: إن "كلمة اليمن تتعامل معها كسياسة، لكنني قرأتُ كتابًا للدكتور (جواد علي) يشير فيه إلى أن اسم اليمن غير موجود، وانهُ وجد (يمن هت)، وتعني منطقة قريبة من القبيطة وكرش (أي ما بين تعز وتلك المناطق)، وتعني في الأصل جنوب في اللغة القديمة".

وأضاف: "قبل الإسلام، عمدها القرآن الكريم في رحلة الشتاء والصيف، وكما نعرف الشام شام (والتي هي الشمال)، و(اليمن) كلما كان يمين الكعبة (أي جنوبها) فهو (يمن)، فكل ما هو جنوب الكعبة هو (يمن)، ويقصد بهذا اليمن حتى الإمارات وعُمان حتى يصل القرن الأفريقي بما فيها الصومال".

وأكد المداوي أن تلك الحقائق يجب التركيز عليها كجنوبيين "لنقطع شوكتهم في مسمى اليمن، فاليمن لم يسمُ إلا في عهد الأئمة كدولة".

وأشار إلى أن "نظرية التوسع التي تطرق لها الباحث صبري قائمة عند الشمال منذ فجر انهيار الدويلات وحتى اليوم هذا".

وتابع: "كتاب (القمندان) تم تحريفه في طبعته الثانية، فمرجعة كتاب (القمندان) هو "حديث الزمن" هو كتاب ابن المجاور (المستبصر)".

واختتم المداوي مداخلته بالقول: "أصبحنا نستغرب من الشارع العام الجنوبي، حيث أصبح ليس هو الشارع الجنوبي من خلال اللباس، وهذا ما يجب على كتابنا ومثقفينا أن يهتموا فيه".

من جانبه، قال رئيس اتحاد أدباء وكتاب الجنوب فرع عدن الأستاذ نجمي عبد الحميد إن: "قضية الجنوب بدأت تطمس من بعد عام 67م، فمنذ أن جاءت كلمة (اليمن الجنوبي)، وتم حذف (الجنوب العربي)، بدأت اليمننة".

وتابع: "الآن لو سألنا طالبًا من هو عبد الرحمن جرجرة أو غيره من أعلام الجنوب لن يعرف، وحكامنا، مع الأسف، هم من يتحملون كل ذلك!".

وأشار نجمي إلى أنه "حتى النشيد الوطني جاء من الشمال رغم أن الجنوب يمتلك شعراء وكتاب كثر.. فمثلًا حينما كنت أدرس كنت أدرس (منهج النصوص) فلا يوجد قصيدة لشاعر جنوبي إلا لو ذكر 26 سبتمبر، فكانوا يرسخون فينا أنه عيب أن تدرس (محمد علي لقمان أو محمد عبده غانم)، لأنهم عملاء الاستعمار ولو قلت أي كلمة مخالفة لذلك يأتي أمن الدولة ويسحبك من المنزل فكيف الناس غابت هويتهم؟".

واستطرد: "الناس الآن تبحث عن هوية الجنوب العربي، وقد كتبنا كثيرًا في ذلك، فالجميع أصبح بحاجة إلى أن يستعيد هويته؛ لأنهم أصبحوا ينظرون إلى (اليمننة) كجزء من سلطة الاحتلال".

وأكمل: "طمس هوية الجنوب وصل حتى إلى الأغاني العيدية، حيث كنا سابقًا نستمع في العيد إلى عبد الرحمن باجنيد (كل عام وأنتم بخير)، من إذاعة عدن، لكن بعد عام 1994م نستمع (آنستنا يا عيد)، وهذا جزء من طمس الهوية الجنوبية".

واختتم نجمي حديثه بالحث على ضرورة إنشاء دار نشر في الجنوب لطباعة الكتب والمؤلفات الجنوبية قائلًا: "للأسف لا يوجد لدينا دار نشر، أما داخل صنعاء فالقطاع العام يعمل وقطاع الدولة والقطاع المختلط يعملوا، ويطبعوا بأفضل المواصفات... نحن كان لدينا مركز (عبادي) نطبع عنده، وتمكن من طباعة أكثر من الأربعة آلاف عنوان، لكنهم حاربوه حتى باع المركز".

بدوره، قال الأمين العام للاتحاد الأستاذ بدر العرابي : "نشكر الباحث على الجهد الذي بذله في تصنيف وبحث، والبحث كان بلا شك عميق، وهذا يجب أن تهتم به الأطر العليا في الحركة النضالية الجنوبية من أجل التحرر".

وأضاف: "إن ما حدث في الجنوب مأساة كبيرة، وممتدة تاريخيًا، فمنذ عام 67م بدأ الالتفاف على الهوية الجنوبية، وبدأ – ربما بقصد أو بدون قصد – بدأ التيار القومي العربي يمارس أدواته ووسائله بتحويل (الجنوب العربي) إلى (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) و(الجمهورية الجنوبية الشعبية) ... إلخ".

واستطرد: "هم الوحيدون الأكثر ضررًا لنا الآن في الإعلام وفي كل شيء".

وأشار العرابي إلى أن: "معالم طمس الهوية الجنوبية بدأت معالمها مبكرًا، وتحديدًا منذ عام 67م، لكن الشيء الجميل الذي نفتخر به ونعتز به، وهو ما يثبت جذور وأصالة الهوية الجنوبية الثقافية، أن الثقافي الجنوبي بعد الضم والإلحاق في عام 90م و94م قاوم، صحيح أن السياسية الجنوبية انبطحت، لكن الثقافة الجنوبية قاومت".

وتابع: "يجب أن نربط المعادلة، ويجب أن نضع الثقافي الجنوبي، فالثقافي صمد والهوية الثقافية الجنوبية صمدت، رغم النطاق والمال الكبيرين اللذان بُذلا في حجب الثقافة الجنوبية والهوية الجنوبية إلا أن الثقافة الجنوبية في الأخير؛ أثبتت أن الاتفاق السياسي الذي أبرم في عام 90م لا يمت لها بصلة، وأن الثقافة الجنوبية ما تزال موجودة".

واختتم العرابي مداخلته بالتأكيد على أنهُ: "لا يمكن أن ينتصر السياسي الوحدوي، بعد عام 90م، إلا في حالة القضاء التام على النفس الثقافي الجنوبي الموجود، وفي حالة القضاء عليه سينتصر السياسي وستنتهي الهوية الثقافية الجنوبية، وهذا أمر محال ومستحيل".

أما رئيس الاتحاد د. جنيد محمد الجنيد فقال في مداخلته إن: "الحفاظ على الهوية الجنوبية سنستطيع القيام به من خلال الكتابات الجنوبية الأدبية الرصينة".

وأضاف: "استشهادك باليمني في بحثك هو استئصال للهوية اليمنية وليس للهوية الجنوبية، وهذه ملاحظة أرجو العمل بها".

وتابع: "يجب أن تبحث عن الشعر الرافض ما بعد 94م، أو حتى ما بعد 90م".